العمل الدبلوماسي في الإسلام
أبو الوليد الباجي نموذجاً

د. نور الدين صغيري
جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا
الإمارات المتحدة

تمهيد:

بداية أود أن أجعل بين يدي القارئ تصورا عن الجهود التي بذلها علماء هذه الأمة في مجال السياسة الشرعية وعلى وجه التحديد العمل الدبلوماسي كما اصطلح عليه الآن في هذا العصر. وأعتقد أنه ليس الهدف من إسباغ لفظ (الإسلامية) على مصطلح الدبلوماسية إضفاء صبغة دينية للمفردات السياسية والحضارية القائمة في المجتمع الدولي بصورة شكلية، أو تصنيفية يقصد بها نشاطات السياسات الخارجية للدول المسلمة، بل أعني بها تمييزها في الهدف والمضمون عن بقية الممارسات التي تدخل في إطار الدبلوماسية القائمة في الساحة الدولية والتي تستقي مبادئها من المناهج والنظريات المطروحة، ومتأثرة بالفلسفات السياسية والاقتصادية والأخلاقية للنظم السياسية الموجودة.

فالدبلوماسية في القديم وبوجه أخص في القرون الوسطى اتصفت بمعاني الدسائس والمؤامرات والتجسس والنشاطات السرية للدبلوماسيين والسفراء ، ثم مرت بمراحل تاريخية ومنعطفات سياسية وثورات فكرية وفلسفية تطورت فيها وأرسيت قواعد وأسس تنظم هذا الجانب الحيوي في العلاقات بين الأمم والشعوب.

وبقيت تلك مبادئ التي سطرها (مترنيخ) و(رشيليو) و(تاليران) أو دبلوماسية بريطانيا في القرن التاسع عشر وفرنسا في عهد لويس السادس عشر هي المهيمنة على الساحة الدولية. وترسخت على مر القرون المفاهيم والأهداف والأدوار المناطة بالدبلوماسية، باعتبارها أداة تواصل وقناة اتصال بين الدول، وتقوم بمهام نقل الآراء والرسائل، وإدارة المفاوضات واطلاع الدول والحكومات على المعلومات اللازمة.

وفي هذا الصدد ما موقع عالمنا الإسلامي من كل هذه النشاطات السياسية ؟ وهل لهم دور في هذا المجال؟ وإن كان الأمر كذلك، فهل هناك سمات بارزة أو شخصيات عرفها

التاريخ لعبت دورا مهما في رأب الصدع أو مثلت حكومات إسلامية أحسن تمثيل؟ نجيب على هذه الأسئلة في فصلين دراسيين :

الفصل الأول: العمل الدبلوماسي في المنظور الإسلامي

الفصل الثاني : الفصل الثاني الباجي وجهوده الدبلوماسية

وقد تم اختياري شخصية الباجي مع أن هناك الكثير من يشاركه في هذه المهمة. لما رأت منه حين قرأت ترجمته من جهود قوية في ظل دولة متفككة وهي دول الطوائف بالأندلس. الأمر الذي جعلني أرشحه عن غيره . فالعمل السياسي والاجتماعي الذي اجتاح الأندلس في ذلك العصر بالإضافة إلى كون الرجل ليس رجل سياسة بل هو عالم فذ واستخدم علمه وجاهه في سبيل توحيد الصف في جزيرة الأندلس.

ويتخلل كل فصل من هذه الفصول مباحث متعددة ذات علاقة بعنوان الفصل. ثم أختم بخاتمة أبين بعض النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

الفصل الأول: العمل الدبلوماسي في المنظور الإسلامي

تعريف الدبلوماسية:

تعرّف الدبلوماسية بأنها مجموعة المفاهيم والقواعد والإجراءات والمراسم والمؤسسات والأعراف الدولية التي تنظم العلاقات بين الدول والمنظمات الدولية والممثلين الدبلوماسيين بهدف خدمة المصالح العليا للدولة[1].

فالدبلوماسية أداة حضارية لم يستغن عنها شعب أو حضارة أو دولة وإن اختلفت مظاهرها وأساليبها، فكانت موجودة في جميع الأحداث والحروب والثورات والعلاقات على مر التاريخ.

الدبلوماسية عند المسلمين:

عرف العرب والمسلمون (السفارة) في عصور مبكرة، فقد بعث الرسول الكريم ﷺ الرسل والمبعوثين لتبليغ رسالته ودعوة الناس إلى الإسلام فقد أوفد ﷺ سفراءه إلى الدول المجاورة للجزيرة العربية وزعماء القبائل. وكان أول سفير في الإسلام هو مصعب بن عمير الذي بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة (يثرب) لدعوة أهلها للإسلام وتعليم المسلمين منهم دينهم وتعاليم الشريعة وأحكامها. كما أرسل ﷺ آخرين منهم:

1 ــ عبد الله بن حذافة السهمي إلى بلاط كسرى ملك الفرس.

2 ــ [illegible]

3 ــ دحية الكلبي بمعية أبي سفيان وآخرين إلى هرقل ملك الروم.

4 ــ عمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة.

5 ــ سليط بن عمرو إلى هوزة بن علي الحنفي ملك اليمامة.

6 ــ عمرو بن العاص إلى ارض عمان.

7 ــ حرملة بن زيد إلى مدينة (أيلة) على البحر الأحمر.

8 ــ المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن وبلاط ملوك حمير

9 ــ خالد بن الوليد إلى مدينة (همدان) قرب بحر عمان.

10 ــ علي بن أبي طالب إلى (همدان) أيضاً.

11 ــ حذيفة بن اليمان إلى ملك الهند (سرباتك).

12 ــ عبد الله بن عوسجة إلى قبيلة حارثة بن قريظ.

13 ــ جرير بن عبد الله البجلي إلى قبائل ذي الكلاع الحميري.

وتعاظمت مهام السفراء والمبعوثين بصورة مطردة مع الفتوحات الإسلامية التي جرت في العشرين سنة بعد وفاة الرسولﷺ، والشعور بالحاجة الماسة لشؤون التبليغ والدعوة أو التفاوض وإجراء عمليات ومراسم الهدنة أو الصلح ووضع شروط المعاهدات وكيفية الالتزام بها وتمثيل الأطراف الموقعة عليها.

وبقيت السفارات والبعثات والرسل الحكومية تمثل جانباً هاماً من جوانب السياسة الخارجية والتعامل مع الدول الأخرى. وشملت أغراضاً متعددة كالتجارة والتمثيل السياسي ووفود التهنئة والمشاركة في المفاوضات والمباحثات والمؤتمرات وعقد الاتفاقيات. أو لأغراض علمية وثقافية وسياحية. وبرز دور الدبلوماسية في إدارة الأزمات الدولية والصراعات وتسوية الخلافات وعقد المعاهدات وتنظيم مختلف شؤون الحكومات والدول والشعوب.

ركائز الدبلوماسية الإسلامية

ترتكز الدبلوماسية الإسلامية على الأسس العامة للإسلام والمفاهيم المستنبطة من تعاليم الشريعة وأهدافها العامة، وخاصة فيما يتعلق بالجانب الأخلاقي والقيم والمثل العليا التي نادت بها كل الرسالات السماوية، إضافة إلى تطبيق المفردات التشريعية الخاصة بهذا اللون من النشاط الإنساني والدولة الإسلامية التي تعتمد في بنائها السياسي وكيانها

الدستوري على الأطروحة الإسلامية شكلاً ومضموناً، نظرية وممارسة، فكراً وسلوكاً وقانوناً، هي التي تجسد هذه الأطروحة في نشاطاتها وعلاقاتها الخارجية مع الدول الأخرى.

ضوابط ومعايير العمل الدبلوماسي:

ما هو دور الأخلاق في عالم اليوم؟

وهل هناك دور للأخلاق في أجواء الدبلوماسية؟

وهل هناك ضوابط ومعايير تحكم سلوك الدبلوماسيين أثناء أدائهم لمهامهم؟

وهل هناك وسائل أخلاقية أو لا أخلاقية في بلوغ أهدافهم؟

وهل يعتبر بلوغ الهدف هو الغرض الرئيسي مهما اختلفت الوسائل أو تناقضت مع القيم الأخلاقية التي تعارف عليها البشر؟

هذه الأسئلة وغيرها قد تتبادر للذهن عند الحديث عن الدبلوماسية.

هناك عدة مدارس وتيارات فلسفية تضع أهداف ووسائل تعتبرها من صلب العمل الدبلوماسي. فالرئيس الأمريكي فيدرو ويلسون دعا في مبادئه الأربعة إلى لفت انتباه الرأي العام العالمي للسياسة الامريكية عندما استخدم مصطلحات الاستقلال وحرية الشعوب وتقرير المصير فجاءت بنوده لتؤكد إمكانية استخدام الدبلوماسية في تقوية العلاقات الدولية وتحقيق العدالة الاجتماعية والإخاء بين المجتمعات البشرية. ومع أن وقائع التاريخ وممارسات السياسة الخارجية الامريكية تناقضت مع تلك المبادىء، إلا أنها جاءت لتهديم البناء الكلاسيكي الميكافيلي.

المدرسة المثالية: فهناك (المثاليون) الذين اعتقدوا بأن الزمن وحده كفيل بردم الهوة بين الأخلاق الفردية والأخلاق السياسية، وتوحيد هذه الازدواجية والاتجاه بها نحو الأخلاق الفاضلة، لكن الحرب العالمية الثانية أبطلت كل هذه الأحلام[2].

المدرسة الواقعية: وهناك (الواقعيون) الذين آمنوا بأن طبيعة وكيفية العلاقات الدولية تساهم بإيجاد احتياجات وضرورات أخلاقية. وأن السلوك الدولي يتأثر بسلسلة من القيود والضوابط والقوانين التي تستهدف في النهاية الوصول للقوة والاقتدار، أي أن العلاقات الدولية لا علاقة لها بالجانب الأخلاقي ولا يوجد هناك ما هو أخلاقي أو غير أخلاقي.

الأطروحة الإسلامية بين هذه الأطروحات:

الأطروحة الإسلامية لا تترك هذا المجال الحيوي عرضة للظروف والارتجال بل تعطي الأصول العامة في كيفية التعامل مع الشعوب الأخرى، مع التأكيد الواضح على المفردات الأخلاقية والإنسانية النبيلة التي تحكم سلوك الفرد والدولة معاً، بحيث يكون هذا السلوك منسجماً مع الإطار العام للشريعة الإسلامية وقواعدها وتعاليمها، مما يجعلها تشكل وحدة متماسكة واضحة الملامح، تحافظ على مبادئها وأهدافها سواء من خلال ما تدعو إليه أو من خلال التطبيق والممارسة لتلك المبادىء. فمفاهيم الصدق والأمانة والوفاء بالعهود والرحمة والإحسان والمروءة والموعظة الحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، كلها تساهم في بلورة الجانب الأخلاقي لدى الفرد والمجتمع ومن ثم الدولة المنبثقة عنه والحكومة التي تحكمه.

فالجانب أو البعد الأخلاقي هو الذي يميز بين السياسي الإسلامي عن غيره، وهو المعيار في السياسة الخارجية للدولة الإسلامية لأنها مرتبطة وممثلة لشريعة سماوية بكل أبعادها وعناصرها الأخلاقية والفكرية والإنسانية، أما المذاهب الوضعية كالميكافيلية والبراغماتية وبقية الفلسفات التي تبرر السلوك المنحرف والوسائل غير الشريفة والظلم، وتلغي القيود الأخلاقية في سبيل تحقيق أهدافها ومصالحها، فهي غير معنية بالأخلاق أو القيم العليا، فالغاية تبرر الوسيلة، مهما كانت الوسيلة غير نبيلة أو وحشية ومهما كانت النتائج المترتبة عليها ومهما تضرر الآخرون.

وفي ظل الأوضاع الدولية الحالية والتنافس المحموم على الثروات والمصالح والمواقع الاستراتيجية، وفي ظل مؤسسات دولية ومنظمات إقليمية وقوانين وأعراف دولية تبرر السلوك العدواني والهيمنة السياسية والرغبة الجامحة في الاستحواذ على ما يملكه الآخرون من ثروات ومعادن، وفي ظل القواعد التي تحكم علاقات المنظومة الدولية ومظاهر الاستغلال والاستلاب الاقتصادي والثقافي، في ظل هذه الأجواء قد تبدو المفاهيم الأخلاقية التي تدعو إليه الأطروحة الإسلامية عزفاً ناشزاً في هذه الفرقة (الأركسترا) العالمية التي يقودها (مايسترو) أميركي.

فالدبلوماسية الإسلامية مدرسة جديدة في العمل الدبلوماسي والسياسي، تختلف عن المدارس الأخرى سواء بالأسلوب والوسائل أم بالمضمون والأهداف، فهي منطلقة من أبعاد أخلاقية ورسالية، ومنهج يجمع بين الالتزام بالمبادىء الإسلامية وبين المتطلبات التي

يفرضها الواقع السياسي وطبيعة التحرك في المجتمع الدولي. كما أنها تختلف عن المناهج الأخرى باللغة التي تستخدمها سواء في مخاطبة الرأي العام الدولي أو المؤسسات الدولية والحكومات، فهي تنطلق من بناء أخلاقي يرفض أساليب الابتزاز السياسي والتهديد والتلويح بالقوة إذا كانت هناك إمكانية بلوغ الهدف المنشود بالأساليب اللينة والمجادلة الحسنة والاحتكام إلى المنطق والقانون الدولي.

المفردات الدبلوماسية

1 . اللغة الدبلوماسية: يستخدم الدبلوماسيون لغة تمتاز بالأدب والرقة والمجاملة مع أنها تستبطن معان عميقة قد تتضمن تهديدات قوية. ويورد السير هارولد نيكلسون في كتابه «الدبلوماسية» عبارات وجمل دبلوماسية متعارفة ثم يعلق على كيفية التعبير عن أقوى المواقف باستخدام ألفاظ مؤدبة يفهمها الطرف المقابل.

2 ــ العرف الدبلوماسي: وهو مجموعة القواعد والسلوك اللازم اتباعها وخاصة في المراسم والمقابلات الرسمية والحفلات وتوقيع المعاهدات والمشاركة في المواكب والاحتفالات واستقبال وتوديع الرؤساء وغيرها.

والدبلوماسي الاسلامي يتجنب من هذه الاعراف والسلوك ما ينافي التزامه الديني وعقيدته، وبإمكانه التكيف مع الأجواء الخاصة أو المواقف التي يتعرض فيه للإحراج.

3 . السلك الدبلوماسي: وهم العاملون في السفارات والملحقيات والقنصليات والذين يتمتعون بالحصانة الدبلوماسية. ويشمل السفراء والقناصل والملحقين المختصين بشؤون محددة كالملحق العسكري والملحق الثقافي والتجاري وغيرهم. يقول الخطيب والفيلسوف سيسرون بأن «حماية السفراء، مضمونة في الحقوق البشرية والحقوق الالهية. إن سفراء الدول شخصيات محترمة ومقدسة ورعاية حرمتهم واجبة ليست في الدول الصديقة بل في الدول المتحاربة»[3].

أهداف الدبلوماسية الإسلامية

هناك العديد من الأهداف التي تتوخى تحقيقها الدبلوماسية: منها ما يحقق الأهداف السامية المنبثقة من طبيعة الرسالة الإسلامية وغاياتها العامة في دعوة الناس إلى التوحيد ودين الحق والعدل والدفاع عن المسلمين والمستضعفين في جميع أرجاء المعمورة، انطلاقاً من المبادىء والقيم التي بشرت بها الرسالات السماوية وسعي الأنبياء والرسل الكرام لبلوغها.

ومنها ما يتعلق باحتياجات الدولة الإسلامية ومتطلبات نشاطاتها السياسية والاقتصادية والتجارية والعلمية والعسكرية. فالعالم اليوم يرتبط ارتباطاً وثيقا في مختلف حقول النشاطات، وعمليات الاستيراد والتصدير تتم عبر علاقات وشبكة اتصالات وهيئات ومنظمات دولية واقليمية تشرف عليها. فلا غنى لأية دولة ومن ضمنها الدولة الإسلامية، عن التعامل مع الدول الأخرى والاتصال بالخارج. وتعتبر الدبلوماسية هي الأداة الفعالة في تحقيق هذه الغايات، إضافة إلى عوامل ذاتية وخارجية أخرى، واهم هذه الأهداف:

1 ــ الدعوة للإسلام: من المهام والأهداف النبيلة التي تضعها الدولة الإسلامية نصب عينيها هي الدعوة للإسلام والتبشير بتعاليم الشريعة الإسلامية ونشر الأفكار الإسلامية وهي تقوم بذلك بأداء واجب شرعي وتكليف إلهي لا يمكن التهاون فيه أو التغافل عنه. وفقهاء الإسلام وعلماؤه ومفكروه يتفقون على ضرورة الدعوة للإسلام مستندين في ذلك إلى الآيات الكريمة مثل:

- ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾(الأعراف، **158**).
- ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ (البقرة، **21**).
- ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (سبأ، **28**).
- ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء، **107**).

ومعلوم أن لفظة (الناس) يقصد بها جميع الناس وجميع البشر وليس صنف خاص منهم.

كما وأن أحاديث وسيرة النبي ﷺ تدل على أنه بعث لكل البشرية، فقد خاطب الملوك والزعماء ودعاهم هو وشعوبهم لدخول الإسلام. فالدعوة للإسلام ليست هدفاً مؤقتاً ضمن مرحلة خاصة بل هي من صلب استراتيجية السياسة الخارجية للدولة الإسلامية

2 ــ وحدة المسلمين: المسلمون ــ وفق التصور الإسلامي ــ أمة واحدة تجمعهم رابطة العقيدة الواحدة والتعاليم والقوانين المنبثقة عنها، ولا يمكن أن تفرقهم عناصر أخرى كاللون والعرق واللغة والحدود، ولا يمكنها أن تصبح سدوداً تحول دون تواصلهم وترابطهم وتماسكهم. والحدود الجغرافية لا تمثل أية قيمة أو اصل شرعي بل هي حدود مفترضة، وضعت في العصر الحديث وأثناء فترة الاستعمار الغربي. فقد تعرضت البلاد الإسلامية إلى التمزيق والتشتت بفعل القوى الاستعمارية، فتحولت الدولة العثمانية ــ التي كانت تمثل آخر رمز يجمع المسلمين وهو الخلافة ــ إلى عدة دول تتفاوت في مساحاتها

حسب المصالح والمتطلبات الاستعمارية التي كانت تستهدف سهولة السيطرة عليها لأسباب إدارية وسياسية واقتصادية ومستقبلية.

والحدود التي وضعها القوى الكبرى لتفصل بين الأنظمة والكيانات السياسية لوحظ فيها زرع الغام طائفية وعرقية ومشاكل حدودية تتوارثها الحكومات، وصالحة للانفجار في أية لحظة. فالحدود الجغرافية رسمت على الخرائط الاستعمارية دون مراعاة أية ضوابط ثقافية وقومية ومذهبية. فشطرت قبائل وأمم إلى عدة أقسام، كل قسم يتبع نظام سياسي معين، أو دولة، وتبقى هذه الشعوب في حالة صراع وتنافس دائمين على القضايا والمسائل القومية والأرض والموارد الطبيعية. وهناك أمثلة عديدة فالشعب العربي توزع على اكثر من عشرين دولة مختلفة الانتماءات والولاءات والارتباط وشكل النظام السياسي.
وهكذا اصبح كل بلد إسلامي يضم عدة اقليات عرقية وقومية ودينية قلما تنسجم فيما بينها بفعل الأنظمة الوضعية وابتعادها عن الإسلام الذي كان يجمعها.

إن وحدة المسلمين واحد من الأهداف الاستراتيجية التي تضعها الدولة الإسلامية نصب عينيها عند رسمها للسياسة الخارجية، وأولويات علاقاتها الخارجية ومن المهام الأصيلة للدبلوماسية الإسلامية. مستهدية بالآية الكريمة: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾.

3 – **المحافظة على كيان الدولة الإسلامية:** الاستقلال يتضمن عدة معان وجوانب، تتركب وتتصل مع بعضها لتشكل صياغة عامة للاستقلال، فيشمل الاستقلال الثقافي، السياسي والاقتصادي. وكل عنصر منها يشارك بقسط معين من مفهوم الاستقلال الذي تتوخاه الشعوب.

4– **حماية النظام الإسلامي:** إن من أهداف الدبلوماسية الإسلامية هو حماية النظام الإسلامي وكل ما يتعلق بمصالح الدولة سواء على الصعيد الخارجي وإدارة المفاوضات والمحادثات وتوقيع الاتفاقيات والمعاهدات التي تخدم مصالح الدولة أو جمع المعلومات اللازمة ومناوئة المخططات والمواقف المعادية للدولة والسعي الجاد في اكتساب الأصدقاء وتحييد الأعداء وتصفية الأجواء وإيجاد علاقات أقوى مع الدول والشعوب، واتخاذ مواقف بصدد الأزمات والأحداث، تنسجم مع ما يدعو إليه الإسلام من مبادئ سامية من جهة. ومطابقة لما ترتأيه القيادة الإسلامية وخدمة المصلحة العليا للدولة من جهة أخرى، أو على الصعيد الداخلي.

5 ــ الدفاع عن المسلمين والمستضعفين: الدفاع عن النفس ظاهرة طبيعية وغريزة راسخة في جميع الكائنات الحية. والإنسان يدافع بكل قوّة ومقاومة عن حياته ووجوده وكيانه وأسرته وأرضه وشرفه ودينه، ولو أدى إلى التضحية بكل ما يملك وحتى نفسه. والدفاع أمر وقائي أمنت به جميع الأفكار والفلسفات والنظريات وبنيت عليه المفاهيم القانونية والسياسية والعسكرية ونصت عليه المواثيق الدولية.

الفصل الثاني الباجي وجهوده الدبلوماسية

ترجمة الباجي مختصرة: هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي، يكنى (أبا الوليد) وأصله من (بطليوس) وينسب إلى باجة الأندلس . مذهبه:مالكي مولده: ولد في باجة سنة **403هـ/1012م**. وفاته: توفي في مصر **474هـ /1081م**

منزلته العلمية: فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث، يقول عنه القاضي عياض: حاز الرئاسة في الأندلس، وتولى القضاء في حلب والأندلس .

أبرز شيوخه: أبو الأصبغ أبو محمد مكي، أبو شاكر، محمد بن إسماعيل والمطوعي وأبو بكر ابن سختويه، وابن محرز، وابن محمود الوراق، والفضل بن عروس وأبو الطيب الطبري والشيرازي وأبو عبد الله الأمغاني، والصحيري وابن السمسار والسماني وأبو بكر الخطيب وغيرهم .

أبرز تلاميذه: ابن عبد البر، أبو بكر الطرطوشي، قاضي ابن شبرين، الحافظ أبو علي الجياني والصدفي، والقاضي أبو القاسم المعافري، والسبتي، وابن أبي جعفر المرسي وغيرهم

أهم مصنفاته: المنهاج في علم الحجاج، إحكام الفصول في أحكام الأصول، التسديد إلى معرفة التوحيد، اختلاف الموطآت، شرح فصول الأحكام وبيان ما مضى به العمل من الفقهاء والحكام، الحدود، فرق الفقهاء، المنتقى شرح المدونة ، التعليل والتجريح لمن روى عنه البخاري في الصحيح[4] .

الدبلوماسية في الأندلس

للدبلوماسية جانبان: جانب تاريخي وآخر فني.

فبالنسبة للجانب الأول هناك نشاط دبلوماسي وافر ، حيث السفارت كثيرة من وإلى قرطبة أوردها لنا المؤرخون الأندلسيون وإن كان كثير منها فقد. وقد وصف هؤلاء المؤرخون جانبا من الاحتفالات ومواكب الاستقبال بالنسبة لهذه الوفود.

إن قسما من هذه الأخبار تتعلق بالجانب الثاني الفني. ولقد بلغت أصول ومراسيم المقابلات بالنسبة للأندلس حداً عاليا فاقت غيرها من البلدان. وكانت هنالك حقوق وحصانات للوفود القادمة. كما وضعت بذور السفارات الدائمة ولدينا شيء أيام الحكم المستنصر[5].

جهود الباجي في العمل الدبلوماسي

ارتفعت في الأندلس دعوة لجمع الشمل كان على رأس من تولاها العلامة القاضي أو الوليد الباجي (403-474هـ) هذه الدعوة نضجت وأتت أكلها بعد سقوط طليطلة التي ثار أهلها في سنة 472هـ ضد حاكما الضعيف القادر وخلعوه. وبقيت المدينة بدون أمير فاستدعي المتوكل صاحب بطليوس ليتولى حكمها ويقوم بواجب حمايتها ...ثم كانت وقعة الزلاقة الفاصلة. ومن الجدير بالذكر أن المتوكل هذا كان قد أرسل القاضي أبو الوليد إلى حواضر الأندلس سفيرا له يدعوا أمراء الطوائف إلى التفاوض وتوحيد الصفوف.

يقول ابن الأبار في الحلّة السيراء: " ولما عظم عيث الطاغية أذفونس بن فردلند، وتطاول إلى الثغور، ولم يقنع بضرائب المال انتدب للتطوف على أولئك الرؤساء القاضي أبوالوليد الباجي، يندبهم إلى لَمّ الشعث ومدافعة العدو، ويطوف عليهم واحدا واحداً وكلهم يصغي إلى وعظه"[6].

ويشير المقّري إلى هذه المهمة التي انتدب إليها الباجي فيقول: "...وكان لما رجع إلأى الأندلس فشا علمه، وتهيأت الدنيا له، وعظم جاهه، وأجزلت له الصلات، فمات عن مال وافر، وترسل للملوك، وولي القضاء بعدة مواضع رحمه الله"[7].

وفي موضع آخر من الكتاب يقول المقري: "كان يستعمله الأعيار في ترسلهم"[8] ويذكر صاحب الديباج المذهب ابن فرحون أنه "كان يستعمله الرؤساء في الرسل بينهم"[9]

وأورد القاضي عياض في ترجمة الباجي أنه " أنه كان يصحب الرؤساء ويرسل بينهم وقبل جوائزهم، وهم على غاية البر"[10].

إن الباجي بعد عوته من المشرق كما يقول ابن بسام في الذخيرة : "..لأول قدومه رفع صوته بالاحتساب، ومشى إلى ملوك أهل الجزيرة لصلة ما اتبت من تلك الأسباب فقام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف أسماعا واعية، بل نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمرهم لقيه

بالترحيب وأجزل حظه في التأنس والتقريب، وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستنقل طلعته، وما كان أفظ الفقيه"[11].

من خلال النصوص التي بين أيدينا والتي جاءت من خلال ترجمته في هذه المصادر تكاد تجمع أن الباجي كلف رسميا من قبل أكثر من واحد من ملوك الطوائف ليكون سفير خير بين هذه الإمارات ليوحد كلمتهم ويضم صفوفهم.

وتظهر مكانة العلماء آنذاك فقد ندب لهذا الأمر العالم الفقيه والقاضي والداعية وذلك لشدة ثقة الرعايا في علمائهم . والتواصل الذي كان بين العلماء والفقهاء، ومكانة العلماء عند الأمراء كل هذا كان يشفع للباجي أن يتولى هذا الأمر عن جدارة واستحقاق.

المدن التي زارها الباجي:

تذكر المصادر التي ترجمت للباجي وغيرها أنه طاف على عدّة مدن وأرسل إلى العديد من ملوك الطوائف فقد زار سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية وبطليوس وميورقة وهذه المدن تتوزع بين شرق الأندلس وغربها.

يذكر القاضي عياض في المدارك: "وكان أكثر تردد أبو الوليد بشرق الأندلس ما بين سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية"[12]

ويضيف الدكتور عبدالرحمن الحجي استنباطا آخر من هذه النصوص فيقول: "يؤخذ من بعض المعلومات والنصوص أنه أقام في بعض المدن الأندلسية مدداً ليست قليلة، مما قد يؤكد أن مهمته وما انتدب إليه نفسه لم تقتصر على ملوك الطوائف ، بل كان يكلم عموم أهل الأندلس خلال إقرائه وتدريسه في المساجد وغيرها"[13].

تبين مما سبق أن دعوة الباجي استمرت عدة سنوات تجول خلالها في مدن وقواعد أندلسية كثيرة في مختلف جهات الأندلس كان حامل هذه الراية قبل أن يكلف بها رسميا، لعل همته وجهده ومسعاه هي التي حولت هذه المهمة إلى شكلها الرسمي بالنسبة له، ليس من الشطط أو البعد عن الصواب اعتبار قيامه بها منذ وقت مبكر يسبق سقوط طليطلة بعقدين من السنين أو يزيد، وتوسم أو نوه بدعوة المرابطين بحوالي العقد قبل هذا التاريخ.

إن تحول اضطلاعه بهذا الأمر بشكل رسمي كان حسب النصوص المتوفرة ليس بعد سنة بل قبلها. أنفق سنوات قبل ذلك بشكل تطوعي.

إن هذا التنبه والتوجهة وأخذ هذه المهمة استثيرت عنده بعد عودته من المشرق حين عاد ورأى سوء الحال استمر في ذلك يشتد ويقوى أثارته حادثة بربشتر بشكل قوي، وهزته هزا عنيفا فقام بين مدن الأندلس وملوك الطوائف كمؤمن آل فرعون، كما عبر عنه ابن بسام.

ولم تقتصر هذه الدعوة لتوحيد صفوف المسلمين في الأندلس على الباجي فحسب بل شاركه الكثيرون من العلماء والأفاضل بل حتى الملوك أنفسهم، وممن شارك من العلماء ابن حزم، وابن عبد البر[14].

الهوامش:

---

[1] الموسوعة السياسية، الكيالي، مادة دبلماسية.

[2] الدبلوماسية الحديثة، لعلي أصغر كاظمي، ص136.

[3] الموسوعة السياسية، الكيالي.

4 (الأعلام للزركلي – الديباج المذهب لابن فرحون).

5 راجع أندلسيات ص44 لعبد الرحمن الحجي، وكذا:

Andalusian Diplomate Relation with Western Europe during the Umayyad period. Berut.1969.

6 الحلة السيراء:98/2.

7 نفح الطيب للمقري:72/2 .

8 نفح الطيب للمقري:72/2 .

9 الديباج المذهب لابن فرحون:ص120.

10 ترتيب المدارك :805/3.

11 الذخيرة لابن بسام:.

12 ترتيب المدارك 803/3 .

13 التاريخ الأندلس للحجي:ص341.

14 انظر التاريخ الأندلسي لعبدالرحمن الحجي من ص 338-344